المقتطف

الجزء الثالث من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مارس سنة ١٩٤٧ — ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦

التعليم والتربية

منزلة الأمم من الحضارة هي في الأكثر التي تحدد معاني الألفاظ في اللغة التي تتكلمها. وإنه مما لا ريبة فيه أن معنى بعض الألفاظ، وبخاصة الألفاظ التي تدل على أشياء أو معانٍ أو مفهومات تتطوَّر بتطور العقلية والفكر، يتكيف دائماً بمقتضى المثاليات التي تقوم في رؤوس الطبقة المنتقاة من الجمعية.

لا ننكر مثلاً أن الانسان البدائي كان يتخير «للتعليم» معنى يتكيف في ذهنه، وتحدده دائماً قواصر القدرة الطبيعية على الفهم، كما تحدده نوازع الوسط الاجتماعي والعادة والعرف اللذين تجري عليهما الجمعية التي يعيش فيها؛ ومنها تستمد مواد القانون القبلي. ولا ننكر ان أيضاً أن هذا المعنى قد تحوَّر وتكيَّف مرات كثيرة في خلال التاريخ منذ العصور القديمة الى الآن. فالمعنى المدرك من التعليم في مصر القديمة مثلاً غيره في بلاد الكلدان أو أشور أو الهند. ذلك بأن هذا المعنى يلابس دائماً صورة تتفق وحاجات كل جمعية، ويخضع كل الخضوع لأغراض الحياة المتكيفة بالبيئة والوسط وهكل الحكم. وقس على ذلك ما أدرك اليونان من التعليم وما أدرك الرومان، ثم قارن بين ما أدرك منه في العصور الوسطى، وما يدرك منه في العصر الحديث، فانك ولا ريب تستبين الفارق البعيد بين جملة التصورات التي قامت في كل عصر لهذا المعنى، مقدرة بمقتضى حاجات كل عصر تقديراً.

أما معنى التربية ، وإن كان من المعاني التي تشرف عندي معنى التعليم ، فقد ظل في جميع العصور تابعاً لمعنى المدرك من التعليم . وإذا صحّ ما أذهب إليه من أن التربية هي في جوهرها « ترويض النفس على تطبيق العلم » ، استطعنا أن ندرك كيف يتمم المعنى المدرك من التربية المعنى المدرك من التعليم ، وكيف أن التعليم يفقد جماع الفائدة منه ، إذا هو لم يطبق على قواعد مثالية من التربية .

ولم يمر عصر من العصور كانت الجمعيات البشرية فيه أحوج منها إلى إدراك الرابطة بين التعليم والتربية من زماننا هذا . فقد تعقدت أوجه الحياة بنشوء هذه الحضارة المادية الاقتصادية ، تعقداً لمسنا معه ضرورة أن يكون لكل جمعية من الجمعيات مراس مثالية توجه حياتها وتقود خطواتها في الحياة ، بحيث تصبح في طرق الجمعية بمثابة المصابيح المنيرة في ليل أليل ، وعندي أننا لم نقصّر في التعليم ، بل أقول أننا تطرّفنا في شحن رؤوسنا بالمواد حتى أصبحنا نشكو مرّ الشكوى من ضخامة المعلومات ، ومن عدم القدرة على خلق شخصيات مروضة على تطبيق العلم . وإذا فقدت النفوس القدرة على تطبيق العلم ، تطبيقاً مثاليًّا من ناحية الأخلاق ، أصبح أداة : إمّا متعطلة ، وإمّا فاسدة .

لا ينبغي لنا أن نغفل مع هذا عن أننا نجتاز عصر انتقال . غير أني لا أميل إلى القول بأن « عصور الانتقال » من الظواهر التي تتخذ سبيلاً إلى الاعتذار عن سوء حالة التربية ، كما يجمع على ذلك كل المفكرين في هذه الناحية . حقيقةً إن عصور الانتقال تختلف في جميع مظاهرها عن عصور الاستقرار ، ولكن إلى جانب هذا هي عصور تقدم وارتقاء ، تدور فيها عجلة التطوّر بأسرع مما كانت تدور ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها قد تدور خلال عصور الانتقال بأسرع مما تدور في بعض عصور الاستقرار . ومن هذه الناحية تكون أهميتها ، بما يكون لها من سلطان ثابت قد يطبع بطابعه عصوراً برمتها من المستقبل . وإني لأقول ، وأستطيع أن أثبت قولي ببراهين منطقية وتاريخية عديدة ، أنك إذا أردت أن تدرس حالات أمة ضربت في المدنية ، ونشأت نظامات حكومية ثابتة ، وكوّنت حياة مؤتلفة ومعاهد مستقرة ، وأن تدرك شيئاً من سر ذلك كله ، فعمَد إلى عصر انتقالها ، تجد أن جذور ذلك كله إنما تعود إلى ذلك العصر ، ففيه تغرس البزرة وفيه تفرخ ، وترى أن كل

الثمار التي تحملها تلك الدوحة فيها طعوم مختلفة من أثر التربة التي نبتت فيها وطبيعة الماء والهواء، وبالجملة من طبيعة « الوراثة الاجتماعية » التي تحملها تلك البزرة الأولى، وتسلم بها الى مستقبل الأجيال.

هذا كلّه يحملني على القول بأن الذين يعتذرون عما نأنس في مجتمعنا من مظاهر القلق والحيرة، بأننا نجتاز « عصر انتقال » غير آبهين لما تحمل عصور الانتقال في تضاعيفها من بذور المستقبل، إنما يرتكبون أخش الخطأ في أسلوب تفكيرهم تلقاء العصر الذي نعيش فيه؛ ذلك بأن عصر الانتقال هذا، هو أجدر العصور بأن نعالج فيه مشكلاتنا الاجتماعية التي سيتمخض عنها المستقبل. هو العجينة التي منها سوف يتكوّن المجتمع المقبل، ومنها سوف يأخذ صورته، وبكل عناصرها سوف يتأثر ويعمل، وبما فيها من جراثيم الدوء سوف يمرض، وبما تحوي من جواهر القوة سوف يتسلّح.

ولكن هل من قوة نستطيع بها أن نحتكم في عصر الانتقال؟ وهو عصر تثور فيه النزعات، وتكثر المخاوف، وتقل المحامد، وتزيد المتاعب، وتنقص فيه الثمرة عن مقدار الجهد المبذول، وتطير فيه الآمال كأنها الأشعة الخاطفة، وتظهر فيه قوى الانبعاث هياجة متطرفة، وثابة لا تؤدة فيها ولا هوادة، وتنطوي فيه القوة المثالية على نفسها، وتقبع قوى السلطات في صدفتها، بينما تحلق في سماء المجتمع المطامع والمكروهات والمادية الجامحة؟

* * *

غالب ظني ان هذه الظواهر يتعذر الاحتكام فيها بحيث يمكن محوها محواً تاماً، أو حتى الاقلال من قوتها بما يذهب ببعض مفاسدها. هي أشياء من خلق عصر الانتقال ومن طبعه. هي سر من أسراره، وخاصة من خلاله. على أن ثابة ما في مستطاع مصلح أن يطلب من المفكرين في مجتمع يجتاز عصر انتقال، هو أن يلجأ الى الممكن ويترك المستحيل. والممكن هو أن يوجه القوى المنبعثة، لا الى الحاضر لأنّ الحاضر مفروغ منه، ولكن الى المستقبل. فان مثل الامة في عصر الانتقال كمثل حامل، أخصنا الخاص. إنها ستلد قطعاً أمّا جنينها فهو الثمرة التي سوف يتلقاها المستقبل. وبحسب تربيته قبل تطليه، سيتكوّن ذلك المستقبل. لهذا أعتقد أن عصر الانتقال هو العصر الذي تكمن فيه كل عناصر

المستقبل . ومن هنا تكون أهميته وشأنه ، وبهذا ينبغي أن يربي وأن يقيّم تقييماً فلسفياً مثاليًا . وعلى مقتضى هذا التقييم يمكننا أن نزن مستقبل الأمة .

كل هذا يؤيد تعريفنا الذي وضعناه « لمعنى التربية » إذ قلنا أنها « ترويض النفس على تطبيق العلم » . ولست أقصد « بتطبيق » العلم عملياً ، فالطبيب يطبق علمه على المريض ، وكذلك المهندس والمحامي وغيرهما ، فإن كل متعلم إنما يطبق العلم على موضوع علمه ، وذلك كله من مقتضيات التعليم . ولكني أقصد تطبيق المثاليات الخلقية على مقتضيات العلم ، أقصد أن يكون لكل علم بثيء حالة نفسية تلابسه ، بحيث تكون من عناصر التطبيق العملي . أقصد أن تكون مكارم الأخلاق ، ومعاني السلوك الأمثل ، هي رائد العالم عند تطبيق علمه . والصانع في صناعته ، والزارع في حقله ؛ وعلى الجملة أن يكون التصوّر الذي يقود الفرد في الحياة خلقاً فيه مزيج من ثابت العلم ومثاليات الخلق .

* * *

إن الطريق الذي نتبعه في التعليم الآن طريق أعوج . نعني بشحن الأذهان ، ونقلع عن ترويض النفوس . نعمل على نقل المعلومات الى الذهن حتى تفعمه ، ونترك الروح في فوضى وفي عماء . نخرج أطباء ومحامين وزراعاً ومهندسين تكاد تكتمل معلوماتهم التي تؤهل بهم أن يعالجوا ما اختص بكل منهم من مشاكل الحياة ، ولا نغرس فيهم المعاني النفسية السامية التي ينبغي أن تطبق هذه المعلومات على مقتضاها . فنحن نعلّم ولا نهذّب . مثلنا في ذلك كمثل من أخذ بالعرض وترك الجوهر . فكأننا نحن نخرج من أبنائنا متعلمين أشبه بعمي يقودهم مقتمدون .

وهل أدلّ على ذلك من العنوان الذي نصرفه على الوزارة التي تعنى بالتعليم فنسميها « وزارة المعارف » وأجدر بها أن تسمى « وزارة التربية » لعل الأذهان تنصرف بوحي العنوان الى تربية النفوس باعتبارها الجوهر ، وجعل « المعارف » هي العرض .

اسماعيل مظهر